مقدمة
فى فلسفة الثورة المصرية

«الثورة» ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية منذ أن أسس الإنسان أول مدنية فى تاريخه السياسى . ولما كان الإنسان المصرى هو بانى أول مدنية فى تاريخ الحضارات الإنسانية، فقد كان هو أيضًا صاحب أول ثورة فى التاريخ السياسى بالضبط كما كان هو مؤسس أول دولة كبرى فى التاريخ - دولة مينا موحد القطرين، وواضع أول قانون فى التاريخ - قانون حورمحب، كان هو أيضًا صاحب أول ثورة كبرى فى التاريخ؛ تلك الثورة التى عاشتها مصر فيما بين الدولة القديمة والدولة الوسطى فى حوالى ألفين قبل الميلاد . ولقد كان فيلسوف هذه الثورة هو المفكر المصرى القديم أيبوور الذى عبر عن هذه الثورة خير تعبير فى برديته الشهيرة التى أطلق عليها المؤرخون «تحذيرات أيبوور»[*] حيث وصف لنا أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى عصر هذه الثورة وعدد أسبابها فى حضرة الملك نفسه . وياللعجب فبعد أن استمع الملك إلى تشريح ووصف الحياة ومظاهر الفوضى التى تعم البلاد وقضت على كل مظاهر الحياة الأخلاقية السوية والاقتصادية العفية، وخرج الجميع على القانون منتهكين حرمة دور القضاء، بل وحرمة القصور الملكية ، بعد أن استمع إلى كل هذا الوصف لأحوال البلاد المتردية واقتصادها المنهار وشعبها الجائع وانقلاب الأحوال فيها رأسًا على عقب ، طلب العذر من أيبوور نظرًا لأنه كان مشغولاً

(*) يمكنك الرجوع هنا إلى كتابنا : الخطاب السياسى فى مصر القديمة أو كتابنا : الفكر الفلسفى فى مصر القديمة . صدر الأول عن دار قباء عام 1998م والثانى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام 2005م .

obeikandi.com

بتأمين أطراف البلاد ومحاربة من حاولوا غزوها فى تلك الأثناء. لكن أيبوور رغم قبوله العذر الملكى يلوم الملك ويزداد لومًا له لأن تأمين الخارج والحدود لا يعنى إهمال الداخل وترك أحوال الناس تتدهور إلى هذا الحد غير المسبوق أخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا .

ولقد حفل التاريخ المصرى بعد ذلك بعشرات الثورات والفتن للدرجة التى جعلت مصر فى العصر الإسلامى تسمى بلاد الفتن لكثرة ما كان يحدث فيها من تمرد على الحكام وعدم استقرار للأوضاع . وظل هذا هو حال المصريين فى كل العصور حتى العصر الحديث فلم يجعل المصريون أى غاز أو مستعمر يهنأ فى بلادنا أبدًا. بل كانوا دائمًا يقاومون حتى فى عصور المهادنة التى كان ظاهرها الخضوع والخنوع وكان باطنها دائمًا يعتمل بكل صنوف المقاومة السلبية والظاهرة.

وظل هذا هو الحال إلى أن جاء العصر الحديث بكل ما فيه من تقدم ووقعت مصر فى أسر الاحتلال الفرنسى ثم الاحتلال البريطانى وكانت آنئذ فى الأصل تحت الاحتلال العثمانى الذى نجح محمد على فى لحظة تاريخية فارقة فى أن يتخلص منه ويؤسس دولة مصرية عصرية كادت تقضى على الإمبراطورية العثمانية نفسها ووصلت الدولة المصرية بجيوشها إلى حدود أوربا. وهنا بدأ خطر محمد على والدولة المصرية الحديثة. وبدأ حالها يتدهور بفعل الضغوط الخارجية وعددًا من العوامل الداخلية إلى أن قامت الثورات المصرية الحديثة عليها وعلى الاستعمار الانجليزى معًا، وكانت ثورة 1919م علامة فارقة أيضًا فى تاريخ مصر الحديثة وحقق من خلالها الشعب مكتسبات عديدة ظلت بين تنام وخبو حتى نجح المصريون أخيرًا بقيادة الجيش المصرى بالقيام بثورتهم الكبرى فى عام 1952م ، تلك الثورة التى قضت على عصر دولة محمد على وأولاده والملكية فى مصر وخلصت البلاد كذلك من الاستعمار الإنجليزى وحكم المصريون

obeikandi.com

مصر بعد احتلال عانت منه مصر طويلاً ، لقد كان محمد نجيب ومن بعده جمال عبد الناصر هما أول من حكم مصر من أبنائها الحقيقيين ربما منذ عصر الدولة المصرية القديمة .

ولعل دوام عصور الاحتلال هذه هى ما جعلت الشعب المصرى شعبًا يعيش الثورة طوال تاريخه عكس كل ما هو شائع عنه . فالشائع أن المصريين شعب خاضع تعود على الخضوع وعانى الاحتلال وتعايش معه لكن الحقيقة أن المصريين لم يتوقفوا يومًا عن مقاومة المحتلين منذ الاحتلال الفارسى فى القرن الخامس قبل الميلاد ومن بعده الاحتلال اليونانى ثم الرومانى وحتى عهد الاحتلال العثمانى ودولة المماليك وعصر محمد على وأسرته . إنها عانت حتى من الاحتلال المزدوج فقد كانت محتلة من الفرنسيين والإنجليز فى الوقت الذى كان حكامها أيضًا من المماليك والعثمانيين وآل محمد على .

ومع كل ذلك وفضلاً عنه فقد كانت مصر حتى بحكامها الأجانب وفى ظل محاولة المصريين التخلص منهم ، تواجه الغزوات الخارجية للعالمين العربى والإسلامى بكل قوة وبسالة، وليس مواجهة التتار بقيادة قطز وهزيمتهم شر هزيمة، وليس مواجهة الصليبيين بقيادة صلاح الدين الأيوبى فى بيت المقدس وهزيمتهم شر هزيمة إلا مجرد أمثلة على أن المصريين هم - رغم كل الظروف - هم حماة الأرض والعرض .

وقد واجه المصريون حتى بعد نيلهم الاستقلال الكامل فى العصر الحاضر المؤامرات تلو المؤامرات وزرعت فى قلب الوطن العربى دولة إسرائيل لتصبح الصداع المستمر فى عقل الأمة . وكان لابد من مقاومتها وكم شن المصريون والعرب من حروب فى مواجهتها إلى أن كانت حرب 6 أكتوبر التى نجحت فيها مصر بمعاونة من جيرانها وأشقائها العرب من القضاء على أسطورة الجيش الذى لا يقهر جيش إسرائيل وهزيمته هزيمة رادعة فى عام 1973م بعد ست أعوام فقط من نكسة 1967م .

إن المصريين لمن لا يعرف حقيقة الشخصية المصرية قوم جبارون قادرون بقدر ما هم متسامحون وطيبون ، إنهم الشعب المبدع المحب للبناء والتعمير والتقدم والرخاء وإن كان أفراده يستطيعون فى ذات الوقت أن يعيشوا على الكفاف. إنهم قوم الكرم رغم معاناة العوز والفقر ، قوم يطلبون الكرامة حينما تشتد المحن والكروب . إن المصريين صبورون نعم على حكامهم والمستبدين بهم وحتى مع محتليهم ومستعمريهم لكنهم حينما يهبون ثأرًا لكرامتهم لا يتوقفون حتى تتحقق الأهداف وبأى وسائل مهما كانت ضئيلة أو لا تكافئ ما فى يد الأعداء والمستبدين .

لقد راهن حسنى مبارك أخر رؤساء مصر على خنوع المصريين وخضوعهم له ولحاشيته فتجبر عليهم ونسى أنهم شعب كريم يصبر لكنه يثأر لكرامته، وهكذا حدث بعد ثلاثين عامًا بدأها مبارك رئيسًا ودودًا شارك فى الحرب والسلام وأجاد البناء ثم تحول إلى مستبد ظالم يريد أن يورث الحكم ويملك وبطانته وحاشيته والمستفيدين من حكمه كل شىء على أرض مصر. فكان لابد من الثورة ، وكان لابد للمصريين أن يخرجوا عليه خروجًا لم يشهده تاريخهم من قبل اللهم إلا فى ذلك العصر الذى أشرت إليه وأرخت له برديات أيبوور .

لقد ثأر المصريون لكرامتهم التى داس عليها أبناء وحاشية مبارك ، وها هم يحاولون الخروج ببلدهم من عنق الزجاجة، تلك المسماة «الفترة الانتقالية»، ورغم كل ما يعانيه المجتمع المصرى الآن من فوضى واضطراب إلا أنهم يعيشون مستمتعين بممارسة حرياتهم التى كانت مفقودة من حرية القول إلى حرية التظاهر والاعتصام إلى حرية الحركة فى بلدهم بلا حدود، إنهم يشعرون بعد فترة طويلة من القهر والذل أن بلدهم عادت إليهم وعادوا هم مواطنين مصريين بحق، إن مصر عادت إلى أبنائها الحقيقيين بفضل ثورة 25 يناير المباركة، وعاد المصريون بالتالى إلى بلدهم مصر محبين ، متجاوزين عن الصغائر ، قادرين على صنع الحياة الأفضل حاضرًا ومستقبلاً .

إن فترة من الاضطراب والقلاقل لابد أن تعقب أى ثورة جامحة هادرة مثل الثورة المصرية، ولكن عبقرية الإنسان المصرى هى ما سيقصر من طول هذه الفترة؛ فإعادة بناء الدولة المصرية فيما نسميه «الجمهورية الثانية» ينبغى أن يبدأ فورًا ودون انتظار. ونقطة البداية الحقيقية العلمية لبناء أى دولة إنما هى وضع دستور دائم لها يتفق عليه كل أطياف وطبقات المجتمع . فالدستور وما يستتبعه ويترتب عليه من قوانين تنظم أوجه الحياة على أرض الوطن فى كل قطاعاته الخدمية والإنتاجية له الأولوية القصوى. وإن كنا قد تخبطنا وأسأنا التقدير بذلك الاستفتاء الذى أجرى على عجل وفضل فيه الناخبون البدء بانتخابات المجالس النيابية على البدء بالدستور، فهذا التخبط وسوء التقدير ينبغى أن يعاد تصحيحه سواء قبل إجراء هذه الانتخابات للمجالس التشريعية أو بعدها. المهم أن نكون مدركين حق الإدراك أن الدولة العصرية الجديدة التى نريد أن نبنيها أساسها دستور دائم يعبر عن كل طموحات الشعب وأماله فى حياة ديمقراطية سليمة واقتصاد قوى مستقر وحياة دينية وأخلاقية تعبر عن هوية المصريين التى ديدنها الاعتدال وغايتها أن الدين لله والوطن للجميع، وأن الكل فى واحد وأن تحقيق السعادة للجميع فى ظل حياة يسودها العدالة والمساواة والتمتع بالحريات الضرورية .

إن أميز ما ميز الثورة المصرية فى 25 يناير هو أن طليعتها كان الشباب المحب لبلده المتطلع إلى أن يخلص شعبه من القهر والاستبداد ويحقق له حياة حرة كريمة يتمتع فى ظلها الجميع بنفس الحقوق فى الحياة والحرية والكرامة الإنسانية ويتمتع بمظلة العدالة الاجتماعية والاقتصادية فى آن معًا. إن الشباب المصرى الواعى الذى كان طليعة هذه الثورة هو أمل مصر فى حاضرها ومستقبلها . ومن ثم فإن على كل من يتطلعون أو يتهافتون على حكم مصر وقيادتها فى المرحلة القادمة أن يدركوا أنهم قد اقتنصوا مكاسب لم يكونوا هم

صانعيها بل صنعها هذا الشباب الواعى العظيم الذى يستحق منهم ومنا كل التبجيل والاحترام . ومن ثم فلنحنى له رؤوسنا حبًا واحترامًا، ولنعطيه فرصة القيادة عن طواعية وحب بدلاً من أن نقفز أمامه مرة أخرى فنعوق حركته ونطوق أماله وحبس طموحاته ونعيد تجميده . إن أخطر ما يواجه الثورة المصرية الحالية هو أن قادتها سلموا قيادها لجيل ليس هو صانعها عن طيب خاطر. وكم يكون جميلاً أن يدرك هذا الجيل الذى سطى على الثورة وسيسطوا قريبًا على السلطة فى مصر أن أصحاب الحق الحقيقيين فى قيادة هذه المرحلة وسيادتها هم هذا الشباب وعلى ذلك فليجعلوه على الأقل مشاركًا فى السلطة وفى كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية حتى حينما تنقضى الفترة الإنتقالية الثانية التى يسودها هؤلاء الشيوخ يكون الشباب قد اكتسب إلى جانب مهارات التخطيط للثورة والقيام بها ، مهارات قيادة الشعب والدولة فى فترة نحن أحوج ما نكون فيها لكى نصنع الحياة الأفضل على أرض مصر ، إلى حماسة الشباب وروح المغامرة التى يتمتع بها هؤلاء الشباب بالإضافة إلى قدراتهم الرائعة على التعامل مع مستجدات العصر بآليات العصر. إنهم أيها السادة الشيوخ والخبراء الذين يتنافسون الآن على حجز مقاعد السلطة فى مصر، إنهم هم الأقدر على البناء الإيجابى لدولة عصرية كما كانوا هم الأقدر على صنع الثورة وقيادتها. ولا تنسوا أبدًا أن الدول تبنيها سواعد وعقول الشباب وليس فقط خبرة الكبار. عاشت مصر وعاش شبابها الحر وعاشت ثورتنا المصرية المجيدة التى كانت أروع ثورات التاريخ ، ولذا فهى بلا شك ستقودنا حتمًا إلى أعظم منجزات التاريخ. وإنى لأرى تلك المنجزات وذلك الإبداع والإصرار على تحقيق التقدم فى عيون الشباب. ولعل الأيام والسنين القادمة ستكون الشاهد على كل ذلك بمشيئة الله.